الغُربة في شعر
عبدالمحسن حلّيت مسلّم

دواعيها وظواهرها الفنية

الدكتور/ماهر بن مهل الرحيلي

الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية بالجامعة

الإسلامية بالمدينة المنورة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أحمد اللهَ رب العالمين الرحمنَ الرحيم مالكَ يوم الدين،وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين،سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين وبعد:

فإن الشعر منبعه النفس الإنسانية ،وهو جزء منها ودليل عليها، يُظهر باطنها ويكشف دواخلها،ولذا فقد نهض النقد الأدبي قديمه وحديثه بالربط بين نقد الشعر والعوامل النفسية، وذلك من خلال عدة جوانب،كالحديث عن بواعث الشعر عند طائفة من النقاد القدماء أمثال ابن قتيبة وحازم القرطاجني وغيرهما،و كالمحاولات العديدة التي حاولت التعرف على سير حياة الشعراء من خلال أشعارهم أمثال العقاد في دراسته عن ابن الرومي ،والنويهي في دراسته عن بشار بن برد، والمازني في دراستيه عن بشار وابن الرومي ،و طه حسين في دراسته عن أبي العلاء المعري، وغيرهم.

والظواهر السلوكية والنفسية للإنسان عديدة لا تُحصى، و من أبرز هذه الظواهر "الغربة والاغتراب"،ولما كان للغربة في شعر عبدالمحسن حليت ظهور بارز ،وجدتُ في نفسي رغبة في الكتابة حول شعره في هذا الجانب خاصة أنه لم يلق من النقاد والدارسين ما يستحق من العناية.

لذا فإني رأيت بعد استخارة الله عز وجل أن يكون عنوان

البحث "الغربة في شعر عبدالمحسن حليت مسلم،دواعيها وظواهرها الفنية"،وقد اقتضت طبيعة البحث أن يشتمل على مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة وفهارس ،سأتناول في التمهيد مفهوم الغربة والاغتراب والتعريف بالشاعر مبيناً أهم المؤثرات والظروف التي أحاطت به ،وفي المبحث الأول سأبين دواعي الغربة عند الشاعر،ثم في المبحث الثاني سأدرس أهم الظواهر الفنية لشعر الغربة عنده، ثم سأذكر أهم النتائج التي توصلت إليها في الخاتمة.

أما عن منهجي في البحث فسيكون منصباً على تحليل النصوص الشعرية التي تحمل دلالات الغربة عند الشاعر، وملاحظة السمات الفنية المشتركة التي تشكل ظواهر فنية في شعر الغربة عنده ، مع العناية بضبط الأبيات الشعرية بالشكل ونسبتها إلى قائليها، والترجمة للأعلام،وتوثيق الأحاديث النبوية الشريفة.

والمأمول أن توضح هذه الدراسة القيمة الفنية لشعر الغربة عند عبدالمحسن حليت ،وأن تبين أثر شعوره بالغربة على شعره، وهي خطوة أولى أرجو أن تسهم في التعريف بالشاعر وشعره.

هذا والله أسأل التوفيق السداد ،ومنه أستمد العون والرشاد، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

التمهيد:

أ- مفهوم الغربة

أصبح مصطلحا "الغربة" و "الاغتراب"من المصطلحات الشائعة في بحوث الأدب والنقد في العصر الحديث،بحيث يدلان على حالة نفسية معينة تصيب الأديب وتظهر في إبداعاته.

والملحوظ على بعض هذه البحوث والدراسات اعتمادها على مناهج علم النفس الغربية ،ومتابعتها في تقسيمات الغربة وتحليلاتها مع استقاء مفاهيم "الغربة" اللغوية من اللغات الأوروبية في المقام الأول [1]،مع أن طبيعة البحث الأدبي تدعو الناقد إلى الإفادة من المنهج النفسي بما يكشف عن الجوانب النفسية في النص الأدبي دون الإيغال في تفاصيل علم النفس وتقسيماته[2]،ومن جهة أخرى فإن المفترَض بدارسي الأدب العربي

([1]) انظر على سبيل المثال:**التمرد والغربة في الشعر الجاهلي**:د.عبدالقادر زيدان،١١-٢٨، دار الوفاء-الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٣م، و **الذات في مواجهة العالم-تجليات الاغتراب في القصة القصيرة في الجزيرة العربية**:د.أميرة الزهراني،٢١-٣٥،المركز الثقافي العربي-الدار البيضاء،ط١، ٢٠٠٧م.و **صورة الرجل في القصة القصيرة في المملكة العربية السعودية**:منال العيسى،٦٥-٦٦، نادي الرياض الأدبي، ط١، ١٤٢٣هـ.

([2]) وهذا المنهج المعتدل هو الذي سار عليه عدد من كبار النقاد

أن يربطوا –إن كان ثمة رابط–بين المدلول اللغوي العربي لمصطلح ما واستعمالاته في العربية وبين معناه الاصطلاحي، وهذا هو ما أقوم به الآن.

فالمتأمل في المدلولات اللغوية لمادة "غ ر ب" يجدها لا تخرج عن التالي:

١. **الغَرْبُ:الذهاب والتنحي عن الناس** [٣].

٢. **الغَرْبة والغُرْب:النوى والبعد،و غَرَب أي بعد،ويقال:اغرب عني أي تباعد**[٤].

٣. **الغُربة والغُرب:النزوح عن الوطن والاغتراب، ورجل**

والدارسين كطه حسين وعبدالقادر المازني ومحمد مندور وشوقي ضيف .انظر :**المنهج النفسي في النقد الحديث–النقاد المصريون نموذجاً**:د/بسام قطوس،٩١–١١٨، إصدارات مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، ط١، ٢٠٠٤م.

([٣]) انظر:لسان العرب:ابن منظور،٣٣/١٠، دار إحياء التراث العربي–بيروت،ط٣، ١٤١٣هـ، و القاموس المحيط:الفيزوأبادي، ٢٦٢/١،دار إحياء التراث العربي–بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

([٤]) انظر لسان العرب:٣٣/١٠ مادة (غ ر ب)، والقاموس المحيط:٢٦٣/١،و شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم:نشوان الحميري، تحقيق د/حسين العمري وآخرين، ٤٩٢٤/٨، ٤٩٣٥،دار الفكر–دمشق، ط١، ١٤٢٠هـ.

غريب أي بعيد عن وطنه [٥] .

٤. اغترب الرجل أي نكح في الغرائب،وتزوج إلى غير أقاربه. [٦]

٥. الغريب من الكلام:أي الغامض [٧]،و رجل غريب :ليس من القوم[٨].وقدح غريب:ليس من الشجر التي سائر القداح منها[٩].

فالمعاني السابقة تعود إلى خمسة محاور رئيسه هي:الانطواء والتنحي عن الناس، و البعد، و النزوح عن الوطن، والتواجد مع غير الأقرباء،وأخيراً الاختلاف في مظهرٍ من المظاهر عن البيئة المحيطة.وهذه المعاني –فيما أرى–تحمل في طياتها مفاهيم الغربة التي تهمنا في الدرس الأدبي جميعاً.

---

(٥) انظر لسان العرب:١٠/٣٣ مادة (غ ر ب)، والقاموس المحيط:١/٢٦٣، وشمس العلوم:٨/٤٩٢٤.

(٦) انظر لسان العرب:١٠/٣٣ مادة (غ ر ب)، والقاموس المحيط:١/٢٦٣،وشمس العلوم:٨/٤٩٤٠.

(٧) انظر لسان العرب:١٠/٣٣ مادة (غ ر ب)، وأساس البلاغة:جار الله الزمخشري،تحقيق د/مزيد نعيم و د/شوقي المعري، ٥٨٢، مكتبة لبنان،ط١، ١٩٩٨، وشمس العلوم:٨/٤٩٣٠.

(٨) انظر:لسان العرب:١٠/٣٣ ، مادة (غ ر ب) وشمس العلوم:٨/٤٩٣٠.

(٩) انظر:لسان العرب:١٠/٣٣ مادة (غ ر ب).

وإذا أردنا أن نضيّق الدائرة أكثر فإننا نستطيع أن نختصر المعاني السابقة للغربة في نوعين اثنين هما:الغربة المكانية والغربة الفكرية أو "الغربة عن الأرض والغربة بين الآخرين"[١٠] .فالغربة المكانية والغربة عن الأرض تشملان البعد والنزوح عن الوطن والتواجد مع غير الأقرباء،والغربة الفكرية والغربة بين الآخرين تشملان الانطواء والتنحي عن الناس والاختلاف مع البيئة المحيطة في أحد مظاهرها كما تشمل التواجد مع غير ذوي القرابة أيضاً.

وقد وردت هذه المعاني اللغوية المتعددة للغربة في استعمال النبي صلى الله عليه وسلم وفي استعمال الشعراء والكتاب منذ القديم، فمما ورد في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم "بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء"[١١].أي أن الإسلام بدأ وأتباعه على غير ما عليه الناس وسيعود كذلك،وسموا غرباء لقلتهم بين الناس أو لأنهم على أمر خلاف ماعليه سائر الناس،وقد وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله:"الذين يصلحون إذا فسد الناس" .[١٢]

([١٠]) **الغربة في شعر محمود درويش**:أحمد جواد مغنية،١٨،دار الفارابي-بيروت،ط١، ٢٠٠٤م.

([١١]) صحيح مسلم بشرح النووي:١٧٦/٢، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط٤.

([١٢]) انظر:مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين:ابن قيم

ومما ورد أيضا في الحديث النبوي من إشارات عن الغربة قوله عليه الصلاة والسلام"كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل" [١٣] ،والمراد عدم التعلق بشيءٍ من الدنيا كما أن الغريب لايتعلق بشيءٍ من دار الغربة[١٤].

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم في عقوبة الزاني غير المحصن:"وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام"[١٥] ،والتغريب هنا يعني الإبعاد عن الوطن والأهل.

و الشعر العربي يزخر بهذه المعاني المختلفة للغربة على مر العصور ،فغربة المكان الناتجة عن الترحال تلوح في شكوى الكميت بن معروف[١٦] حين يقول:

الجوزية،ت. محمد حامد الفقي،١٩٤/٣-١٩٦، دار الكتاب العربي-بيروت، د.ت.

([١٣]) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني، تحقيق محب الدين الخطيب، ٢٣٧/١١،دار الريان-القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ.

([١٤]) انظر شرح الحديث:المصدر نفسه.

([١٥]) صحيح مسلم بشرح النووي: حديث رقم ١٦٩٠ في الحدود، ٢٠٧/١١.

([١٦]) هو الكميت بن معروف بن الكميت الأسدي،شاعر مخضرم عاش أكثر حياته في الإسلام، يعرف بالكميت الأوسط، توفي نحو سنة ٦٠هـ. "الأعلام:٢٣٣/٥"

فقالت غريبٌ ليس بالشام أهله أجل كل عُلوي هناك غريبُ[١٧]

وفي قول مالك بن الريب[١٨]**:**

غريبٌ بعيد الدار ثاوٍ بقفرةٍ يد الدهر معروفاً بأن لا تدانيا(١٩)

وغربة التفرد والتميز تظهر في قول المتنبي[٢٠]**:**

أنا في أمة تداركها اللـــــــه غريبٌ كصالح في ثمود[٢١]

([١٧]) منتهى الطلب من أشعار العرب:محمد بن المبارك بن ميمون،ت. د/محمد طريفي، ١٣٦/٨، دار صادر –بيروت، ط١، ١٩٩٩م. و عُلوي: أي من عالية الحجاز.

([١٨]) هو مالك بن الريب بن حوط المازني التميمي(...-نحو٦٠هـــ)،شاعر من الظرفاء الأدباء الفتاك،اشتهر في أوائل العصر الأموي،قطع الطريق مدة ثم تاب على يد سعيد ابن عثمان ،قال أبو علي القالي:كان من أجمل العرب جمالا، وأبينهم بياناً."الأعلام:٢٦١/٥".

([١٩]) جمهرة أشعار العرب:أبو زيد القرشي، ٧٥٩/٢.

([٢٠]) هو أحمد بن الحسين الكندي المعروف بالمتنبي (٣٠٣-٣٥٤هـــ)،صاحب الأمثال السائرة والمعاني المبتكرة، ولد بالكوفة ونشأ في الشام،ثم تنقل في البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس.قال الشعر صبياً،ومدح كثيراً من الأعلام فوفد على سيف الدولة وكافور الإخشيدي وابن العميد وعضد الدولة البويهي،قتله فاتك الأسدي بسبب قصيدة هجاء قالها في ابن أخته ضبة الأسدي."الأعلام:١١٥/١".

وقوله عن بلاد خراسان:

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان[٢٢]

وما الوجه واليد واللسان في البيت إلا رموز للفكر والشخصية.

كما تلوح الغربة الفكرية واضحة في قول أبي فراس الحمداني[٢٣]:

غريبٌ وأهلي حيث ما كان ناظري..... وحيدٌ وحولي من رجالي عصائبُ[٢٤]

وبُعد الأحبة أو صدهم لمن يحبهم مما يجعله يشعر بالغربة ،وكأنه لايعرف أحداً من الناس بعد فقده من يحب،وقد ورد في

([٢١]) شرح ديوان المتنبي:٢/٤٨.

([٢٢]) شرح ديوان المتنبي:٤/٣٨٤.

([٢٣]) هو الحارث بن سعيد التغلبي (٣٢٠-٣٥٧هـ)، أمير شاعر فارس.كان الصاحب بن عباد يقول :بدئ الشعر بملك وخُتم بملك، يعني امرأ القيس و أبافراس.وكان مقدماً ومحبوباً عند ابن عمه سيف الدولة،له وقائع كثيرة مع الروم ولما أُسر اشتهر من شعره الروميات.قُتل في تدمر. "الأعلام:٢/١٥٤".

([٢٤]) ديوان أبي فراس:٢٣، دار صادر-بيروت.

أمثال العرب قولهم:"فقد الأحبة غربة"[٢٥]،وهذا المعنى مستفيض عند كثير من الشعراء مثل الأحوص الأنصاري [٢٦]حين يقول:

فلا تحسبي أن الغريب الذي نأى ولكن من تنأينَ عنه غريبُ[٢٧]

و جرير[٢٨] في قوله:

كفى حزناً فراقهم وأني غريبٌ لا أزار ولا أزورُ [٢٩]

([٢٥]) المستقصى في أمثال العرب:الزمخشري،١٨١/٢، دار الكتب العلمية-بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ،،كما ورد بلفظ الإخوان بدلاً من الأحبةفي مجمع الأمثال:الميداني،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،٤٦١/٢، دار الجيل-بيروت، ١٤١٦هـ.

([٢٦]) هو عبدالله بن محمد الأنصاري،من بني ضبيعة،لقب بالأحوص لضيق في مؤخرة عينيه ،شاعر هجاء صافي الديباجة،من طبقة جميل بن معمر ونصيب،كان معاصراً لجرير والفرزدق،وهو من سكان المدينة،كان حماد الراوية يقدمه في النسيب على شعراء زمنه، مات في دمشق سنة ١٠٥هـ.

([٢٧]) شعر الأحوص الأنصاري:ت. عادل سليمان جمال،٢١٢، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر-القاهرة، ١٣٩٠هـ.والبيت مختلَف في نسبته بين الأحوص وابن الدمينة وغيرهما كما ذكر المحقق.

([٢٨]) هو جرير بن عطية اليربوعي التميمي(٢٨-١١٠)،ولد ومات في اليمامة،عاش عمره كله يناضل شعراء زمنه فلم يثبت أمامه غير الأخطل والفرزدق،كان عفيفاً وهو من أغزل الناس شعراً.(الأعلام١١٩/٢) .

والعباس بن الأحنف[٣٠] في قوله:

ذهب الحبيب فيا بلا ئي كيف طال بي اغترابي[٣١]

وقوله أيضا:

أقمتُ ببلدةٍ ورحلتِ عنها كلانا بعد صاحبه غريبُ[٣٢]

والشريف الرضي كذلك في قوله:

فقدتُ وفي فقد الأحبة غربةٌ وهجران من أحببتُ أعظم داءِ[٣٣]

ويتصل بهذ النوع من الغربة مايشعر به الإنسان بين أعدائه كما في قول جميل بثينة[٣٤]:

([٢٩]) ديوان جرير:شرح إيليا الحاوي، ٢٨١.

([٣٠]) هو العباس بن الأحنف بن الأسود الحنفي اليمامي،شاعر غزل رقيق، وصفه البحتري بأغزل الناس،خالف الشعراء في طريقتهم فلم يمدحْ ولم يهجُ، وكان شعره كله غزلاً وتشبيباً،توفي سنة ١٩٢هـ."الأعلام:٣/٢٥٩".

([٣١]) ديوان العباس بن الأحنف:٧٦، دار صادر-بيروت، ١٣٩٨هـ.

([٣٢]) ديوان العباس بن الأحنف:٥٨.

([٣٣]) ديوان الشريف الرضي:١/١٢.

([٣٤]) هو جميل بن عبدالله بن معمر العذري(...-٨٢هـ)،شاعر من عشاق العرب،افتتن ببثينة من فتيات قومه فتناقل الناس

غريبٌ إذا ما جئت طالبَ حاجةٍ وحولي أعداءٌ وأنتَ مشهّرُ[٣٥]

و قولِ الشريف الرضي[٣٦]:

وإن غريب القوم من عاش فيهم وليس يرى إلا عدواً مداجيا[٣٧]

وليس المقام مقام استقصاء لما قال الشعراء في الغربة،وإنما الإشارة الموجزة هنا تدلنا على تعدد معاني الغربة عند الشعراء منذ القديم،وعلى اختلافهم في أسباب شعورهم بالغربة التي تختلف كذلك من عصر إلى آخر حسب الظروف والأحداث.

أخبارهما،شعره رقيق جدا وأقل مافيه المدح.وفد على عبدالعزيز بن مروان بمصر فأكرمه وأمر له بمنزل أقام فيه حتى مات."الأعلام:٢/١٣٨".

([٣٥]) ديوان جميل بثينة:٦٣، دار صادر-بيروت، ط٢، ٢٠٠٢م.

([٣٦]) هو محمد بن الحسين بن موسى(٣٥٩-٤٠٦هـ)أشعر الطالبيين،مولده ووفاته ببغداد، انتهت إليه نقابة الأشراف في حياة والده ،من مؤلفاته :ديوان شعر،الحسن من شعر الحسين،المجازات النبوية،مجاز القرآن،وغيرها."الأعلام:٦/٩٩".

([٣٧]) ديوان الشريف الرضي:٢/٥٨٨، تصحيح وتقديم د/إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٩٩٤م.

ب- عبد المحسن حليت: حياته وشعره.

ولد الشاعر عبدالمحسن بن حليت بن عبدالله مسلم في المدينة عام ١٣٧٧هـ،وحصل على شهادة الثانوية من مدرسة قباء عام ١٣٩٨هـ،ثم ابتُعث إلى أمريكا لإكمال دراسته وحصل على درجة البكالوريوس في الإدارة العامة من جامعة ونشستر عام ١٩٨٣م[٣٨].والمصادر التي تحدثت عن حياته ليست بالكثيرة من جهة،ومن جهة أخرى فإن الشاعر ليس ممن يحبون الظهور ويسعون إلى الشهرة،يدل على ذلك عدم جمعه لقصائده المتناثرة في الصحف في دواوين جديدة ،وتوقفه عن ذلك بعد ديوانيه الموسومين بـ"مقاطع من الوجدان" المنشور سنة ١٤٠٣هـ،و "إليه" المنشور سنة ١٤٠٥هـ،وكلا الديوانين يعدان من الدواوين النادرة في المكتبات العامة والمعدومة في المكتبات التجارية.

والمطلع على نتاج الشاعر يظهر له وجود أثر واضح لبعض الشخصيات في حياته،ومن هذه الشخصيات والداه ،و أستاذه الشيخ

([٣٨]) انظر في ترجمة الشاعر:شعراء العصر الحديث في جزيرة العرب:عبدالكريم الحقيل،٧٥،ط٢، ١٤١٣هـ و معجم الشعراء السعوديين :عبدالكريم الحقيل،٢٢٩،ط١، ١٤٢٤هـ و شعراء من المملكة العربية السعودية:محمد شراب،٥٠١،دار المأمون للتراث- دمشق،ط١، ١٤٢٦هـ.

محمد المجذوب [٣٩]،ويبدو أن له دوراً هاماً في تربية الذوق الفني لدى الشاعر،كما نجد للشاعر عمر أبي ريشة [٤٠]دوراً ملحوظاً في اتجاه الشاعر إلى قضايا الأمة الإسلامية ،وإعجاب الشاعر بأبي ريشة يظهر في إهدائه إحدى قصائده له ومطلعها:

أنصتي لي ورجّعي ألحاني واحمليني على أكف الحنان[٤١]

كما تظهر هذه العلاقة في تقديم أبي ريشة لديوان "مقاطع من الوجدان"وهو تقديم مختصر ولكن يدل على وجود تواصل بينهما.

([٣٩]) هو محمد بن مصطفى المجذوب (١٣٢٥-١٤٢٠هـ)،أديب شاعر داعية،ولد في مدينة طرطوس على الساحل السوري ،تعلم في مدارس الدولة وعلى الشيوخ،شارك في مقاومة الفرنسيين أيام الانتداب وتعرض للسجن والاضطهاد،عمل في وظائف التعليم في سورية والمدينة والمنورة بالجامعة الإسلامية، توفي –رحمه الله– باللاذقية.له نحو خمسين كتاباً. "إتمام الأعلام–بتصرف يسير:٤١١".

([٤٠]) هو عمر بن محمد شافع (١٣٢٦-١٤١١هـ)،سوري من كبار شعراء العرب في العصر الحديث،تعلم في حلب وفي الجامعة الأمريكية ببيروت،عين سفيراً لبلاده في كثير من دول العالم،وفي آخر حياته أطال المقام في السعودية،إلى أن توفي بجلطة دماغية فيها ونقل إلى حلب ودُفن فيها.له:ملاحم البطولة في التاريخ العربي(اثنا عشر ألف بيت)،ديوان عمر أبوريشة،وغيرهما."إتمام الأعلام:٢٩٧".

([٤١]) مقاطع من الوجدان:١١١.

وقد كان لحضور الشاعر الاجتماعات الأدبية و حرصه على مخالطة الأدباء في بداية حياته طيب الأثر على ذوقه الأدبي وحسه الفني. وهو من الشعراء الذين يكتبون بصدق وانفعال قوي قد يؤدي إلى المبالغة أحياناً،ولذا فإن لشعره من الأثر في قارئه ما لانجده في دواوين كثيرة لغيره.

والمتأمل في شعر الحليت يرى أن موضوعات شعره تتوزع على أنواع شتى من التجارب الشعرية، فالتجربة الدينية حاضرة في شعره بوضوح من خلال حديثه عن الأمة الإسلامية واستلهامه لتاريخها وحضارتها وتألمه لما أصابها في العصر الحاضر من استعمار وحروب وغير ذلك.

كما أن للتجارب الشخصية الذاتية حضوراً متميزا في ديوانيه من خلال قصائده التي تحكي معاناته في الحب ،وهو يمتاز في هذا النوع من التجارب بالعنف والسخرية اللاذعة،ويدخل في هذا الباب قصائده التي قالها في محيط الأسرة والأصدقاء.

أما التجربة الاجتماعية فهي تلوح في شعره الذي يصف علاقته بمن حوله من الناس ،أو يشير فيه-حسب مايرى- إلى مفاسد ظهرت في المجتمع ،وهو وصف يمتاز بالصراحة وقوة الشخصية .

والغربة-موضوع البحث-تتغلغل في أنواع التجارب السابقة جميعاً،مما يجعلها من الظواهر في شعره،وهي لاتقتصر على الغربة المكانية بل تتعداها إلى معاني أخر كانت لها دواع ومسببات،كما سأبين في المبحث القادم.

المبحث الأول:

دواعي الغربة في شعر عبدالمحسن حليت

إن شعور عبدالمحسن حليت بالغربة مدفوع بأسباب عديدة و دواعي مختلفة تظهر لنا من خلال شعره، ويمكن حصرها في التالي:

أولاً:اغترابه عن الوطن للدراسة.

يظهر لقارئ شعر عبدالمحسن حليت أنه تغرب عن وطنه من أجل إكمال دراسته حقبة من الزمن،وهو في هذه الحقبة يشعر بأنه غريب ويحن إلى الوطن ويتشوق إلى أهله وأحبائه،والقصائد التي تظهر فيها هذه العاطفة تنضم جميعاً إلى ديوانه الأول "مقاطع من الوجدان".وفيها يخاطب الأشخاص المهمين في حياته : أستاذه المجذوب وجده وأباه وأمه.

فقصيدته إلى أستاذه عنوانها "رسالة من أمريكا"[٤٢]،والحنين واضحٌ في العديد من أبياتها مثل قوله مخاطباً الهزار:

جُدْ يا هزار بلحنٍ فوق أوتاري واسكب على مدمع المجذوب أشعاري
واقرأ عليه سلامي واقره وأفضْ قصائد الشوق واقصصْ بعض أخباري
وبُثَّه توق تلميذٍ له قذفتْ به النوى عبر أسفارٍ وأقطار
وقل له (محسنٌ) قد بات من لهفٍ إلى حديثك كالجاثي من النار

---

(٤٢) مقاطع من الوجدان:١٠٣.

ويختلط شعوره بالعرفان مع شعوره بالحنين في مثل قوله:

شوقي إليك أبا غسان يوقد بي لظى الحنين إلى أطياف تذكاري
علمتني الشدو حتى صرتُ أسبح في بحر القوافي فطالت فيــه أسفاري

كما تمتزج الشكوى أيضا بالحنين والشوق،لأن الإنسان يفتقد من يحبهم حين يحتاج إلى دعمهم وحبهم،وقد ظهرت هذه الشكوى عند عبدالمحسن حين يقول:

هلا علمتَ أبا غسان عن كـــمدي لمّا ظُلمتُ ولمّا قـــــلّ أنصاري
يخالني البعضُ مسلوب الذكاء ومن لم يلمس الجمرَ لايدري عن النار
أشارك الناس في آلامهم شـــجناً وليس منـــهم بما كابدته داري
فلستُ أسمع إلا قـــــول معترضٍ ولستُ أبـــصر إلا عمي أبصار

ولاشك أن هذا الشعور المرير تجاه انتقاص الناس له يجعل إحساسه بالغربة أقوى وأمرّ.

وحين يخاطب جده[٤٣] نجد الشاعر يستحضر الذكريات السعيدة مع جده لكي تسليه في غربته:

بواعثُ الحب ياجدي تناديني وتسكب الشوق في أحلى التلاحين
أراكَ بالقلب لا بالعين ياقمراً بالنور يوسع لـــي دربي ويهديني
فحلو لفظك في حزني يداعبني وطيفك العذب فـــــي همي يسليني
كأنني كلما قاربتَ من نظري يميتني الشوق والآمال تحييني

([٤٣]) مقاطع من الوجدان: ١٢٠.

و تبرز للمدينة مكانة واضحة في نفسه وذلك حين يقول:

حفيدك العاشق اعتاد التغرب في أسفاره فمشى في الماء والطين
ما سار من طيبةٍ إلا وأرّقـــــه شوقٌ إلى مرقد الــغرِّ الميامين
وأنت يا جدُّ ما فارقتَ أربعـــــها وما وطئتَ ســواها من ميادين
فكيف بي وأنا في كل نازلـــــــةٍ أرى المدينة عـــــن بعدٍ تحييني

والإحساس بمرارة الغربة يظهر قويا في قصيدته[٤٤] التي يتشوق فيها إلى أمه،وفي قصيدته الأخرى[٤٥] التي قالها في أبيه بعد أن زاره في رحلة علاجية، والسبب في ظهور الألم في القصيدتين يُعزى لما للوالدين من مكانة في نفس ولدهما الشاعر،ولأن الإنسان مهما كبر وبلغت به الخبرات والسنين فإنه لايزال يحن إلى حنان الأم وعطف الأب وتوجيههما،ولنستمع إليه مخاطباً أمه:

فراقُكِ شيءٌ لستُ أسطيع حمله وصبري على طول التفرق لايجدي
أحنُّ إلى لقياكِ في كـــــل ليلةٍ حنين مسنٍ للطفولة والمـــــــــهد
لأنعمَ بالقربِ الذي في ظلاله أنامُ ولا أشكو من الحر والبرد

وفي ختام القصيدة يعود إلى وصف حاله بعد فراقه لأمه ويتمنى أن تنقضي فترة الدراسة عاجلاً ليعود إليها قائلاً:

فراقُكِ لوتدرين يا أمّ مـــــــوردٌ لكل سقامٍ قد وجدتُ بـــه وجدي
فليت شهور العام تمضي كليلةٍ وليت أماني القلب تبلغني قصدي

---

(٤٤) مقاطع من الوجدان:١٤٩.

(٤٥) مقاطع من الوجدان:١٥٤.

لأركب ظهر الريح شوقاً وأنتهي إلى حيث تخفيني الدموع وما أبدي
أكـــبُّ على كفيك حينا مقبلاً وحينا يضم الشوق خـــــداً على خد

وتتكرر هذه المعاني السامية ذاتها في خطابه لأبيه في مثل قوله:

أبا خالدٍ ما عدتُ أقوى على النوى فقد عزّني شجوي وغيّض منبعي
ولم يبق لي من متعة غير أن أرى رضاك –وإن شط المزار بنا–معي

ثانياً:إحساسه بضعف الأمة الإسلامية.

لعبدالمحسن حليت عدد من القصائد يلوح لي من خلالها أنه يستنكر واقع الأمة الإسلامية الذي تعيشه ،ويرفض سلوكها في بعض جوانبه ،وهو في ذلك يشعر بأنه غريب عنها ويحن إلى ماضيها المجيد ويستلهمه ويدعو إلى العودة إليه،والغربة هنا تكمن في أنه يرى نفسه أجدر بالانتماء إلى أسلافنا الذي نهضوا بالأمة ورفعوا راية الإسلام،ويتألم من انتمائه الحقيقي للحاضر الذي يشهده العالم الإسلامي كما يرى.

ومن أبرز قصائده التي تعبر عن هذا الإحساس قصيدته المعارضة[٤٦] لمعلقة[٤٧] عمرو بن كلثوم[٤٨] المشهورة والتي يفخر

([٤٦]) إليه:٥٧.

فيها بقومه وشرفهم،إلا أن عبدالمحسن اتخذ من المعارضة هنا وسيلة لبيان المفارقات بين حال العرب قديما وحالهم الآن[٤٩]، فعمرو بن كلثوم يقول:

ونشرب إن شربنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدراً وطينا

أما عبدالمحسن فيقول:

ونسقي بعضنا كدراً وطيناً لنسقي غيرنا ماءً معينا

والألم يظهر جليا في العديد من أبياته مثل قوله عن قصيدته مخاطبا عمرو بن كلثوم:

تضيف إليك شيئاً لم تقـــــله وتمحو كل مــا قد قلتَ فينا
وتُبدل كل بيتٍ قيل فـــــخراً ببيتٍ يلعق الـــــذل المبينا
أبيت اللعن كل خطوط عــاري على وجهي غدت وشماً حزينا

([٤٧]) ديوان عمرو بن كلثوم:ت. د/علي أبوزيد،٧٥، دار سعد الدين-دمشق، ط١، ١٤١٢هـــ.

([٤٨]) هو عمرو بن كلثوم التغلبي،شاعر جاهلي،من الطبقة الأولى،كان من أعز الناس نفساً، ساد قومه فتىً وعمر طويلاً،مات في الجزيرة الفراتية نحو سنة ٤٠ قبل الهجرة. "الأعلام :٨٤/٥".

([٤٩]) انظر:المعارضات في الشعر السعودي من ١٣١٩-١٤١٩هـــ دراسة نقدية موازنة:د/ماهر الرحيلي،٨٠، شركة كنوز المعرفة-جدة، ط١، ١٤٣١هـــ..

قصيدتك التي عاشت دهــوراً أراها في مـــــوازيني

طنينا

سأبصق في محيا كـــــل بيتٍ وأشطب وجهه كـــي لايكونا

وأنخر في مفاصله المــعاني وفي أعصابه حـــــتى يلينا

وقد استعرض الشاعر في قصيدته بعض المصائب التي مرت على الأمة الإسلامية كحرب النكسة ومذبحة صبرا وشاتيلا ومأساة فلسطين،وهو يعلم أن الإسلام بريء من هذا الضعف وأن المسلمين هم الذين تقاعسوا:

أبيت اللعن ما أدركتَ ديني ولـــــو أدركتَه لرأيتَ دينا

فكم يُعزى إلى الإسلام ذنبٌ وكل الذنب ذنب المسلمينا

وللشاعر قصيدة في الغرض نفسه كتبها أثناء تغربه للدراسة[٥٠]،وفيها تتوالى حسراته غيرةً على دينه في مثل قوله مخاطباً الليل:

وكيف تراني أحمد العيش ساحةً ودِيني في الأصقاع ليس له ذكرُ

كأن لم يغطِّ الكون والأرض ظله ولم يزن الأيـــــام من فخره كبر

ولم يسر ملء الشرق والغرب ذكره ولم يغنِ دهـــــراً كاد يهلكه الفقرُ

---

(٥٠) مقاطع من الوجدان:٢٥.

وتظهر الغربة حينما يحن إلى هذا الماضي فيقول:

و أين زمانٌ ضم ســـــعداً وخالداً وأين نفوسٌ حازها اللحد والقبر
و أين سنا بدرٍ وأبطـــــــال خيبرٍ وأين من اليرموك أمواجه الحمرُ
فواهاً على الإسلام مذ غاب أهله وواهاً على الإيمان مذ عزّه الكفر

ويختم قصيدته بذكر الحل المناسب وهو عودة المسلمين إلى دينهم،فيقول:

فليت بني الإسلام عــادوا لدينهم وليت ربوع الحق يغمرها الفجر
فتخفق رايات الجهاد على الربى وترجع أيـــــــامٌ تعود بها بدر
ويركع كل الخلق لله ســـــــجدا ويعلو أذان مـــنه ينتفض النصر
ونصبح أهلاً للذي نحن أهلـــــــه وتعنو جباهٌ طالما راضـــها الكبرُ

والبيت الأخير فيه إشارة إلى إحساسه بالغربة،لأنه متضمن وصف المسلمين –وهو منهم–بغير ما هم أهلٌ له من العزة والكرامة والتمسك بالدين.

و له قصيدة عنوانها "حمزة"[٥١] ،كتبها أثناء دراسته خارج الوطن أيضا،وفيها يتحدث عن مظاهر البطولة في شخصية حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه وأرضاه،ولعل تغني الشاعر بأمجاد الإسلام مما يخفف عنه غربته،ويسليه عن بعض همومه،ولذلك نراه في ختام قصيدته يقول:

أسد الله قد هتفتُ ونـاديـــ ـــتُ فهل أنت منصتٌ لندائي

---

(٥١) مقاطع من الوجدان:٢٧.

كدت أنسى هوان قومي لما أرسل اللفظ فيك بعض رثائي

والهدف نفسه يتكرر في قصيدته "رسالة إلى المعتصم"[٥٢]،إلا أن غربته هنا أوضح وأبين من خلال عرض التناقضات بين عصرنا –الذي يتبرأ الشاعر منه–وعصر المعتصم ، وذلك في مثل قوله مخاطباً المعتصم:

ماذا سمعتَ أبا إسحاق مذ عصفت بنا الرزايا وملّتنا منايانا
بلى ستعجب من أيامنا فلقد صرنا الرعايا لمن كانوا رعايانا

وقوله:

تغيّر الحال حتى صار شانئنا بالحب نلقاه لكن كيف يلقانا؟
صرنا الذيولَ وهم صاروا الرؤوس وقد عاشوا كراماً ومتنا في زوايانا

ومثل هذه التناقضات تصيب النفس المرهفة بصدمات من الغربة ،لأنها تنتمي إلى عصر المعتصم المشرّف وتريد منه الاستمرار والاتصال إلى يومنا هذا[٥٣].

---

(٥٢) مقاطع من الوجدان:٩١.

(٥٣) للاستزادة انظر قصيدته في خطاب جبل أحد:مقاطع:٣٨، و قصيدته عن مدينة بيروت أيام الحرب الأهلية:مقاطع:٥٨، وقصيدته على لسان زوجة فدائي من فلسطين:مقاطع:٦٩،و حوار مع العيد:مقاطع:٨٣.

ثالثاً:شعوره بالاختلاف عن المجتمع الذي يعايشه.

إن الشعور بالاختلاف عن المحيط الذي يعيش فيه شاعرنا لأكبر مدعاة إلى العزلة والانطواء والإحساس بالغربة،وهذا الاختلاف له أشكال عديدة ومختلفة كما نتلمسه في شعره.

فمن ذلك مانجده في قصيدة "إباء"[٥٤] حيث يقول مخاطباً فتاةً ،بعد أن استعرض مبادئه في الحياة وماتجرّ عليه من متاعب:

لو تشرّدتُ كل يوم ســـــأبقى عالي الرأس هـــازئاً بالثبور
لو تعثّرتُ بالمصائب لـــــم أرْ ضَ لقدري بغير قدر البدور
أطأ الشاهقات طوعاً وأهوى صحبة الفرقدين عند المسير
ليس كبراً ما قد سمعتِ ولكنَّ إبائي محكّمٌ في شـــــعوري
إنني النسر يافتاتي وهـــــذي عزةٌ تعهدينها فـــــي النسور

والمتأمل يلحظ أن الشاعر يقرن نفسه بالبدور والنسور ،ويرقى لصحبة الفرقدين ،وهو في كل هذا يبعد أكثر وأكثر عن بني جنسه "البشر".

والحديث عن الشيب بصورة ملحة مسألة وثيقة الاتصال بشعوره بالاختلاف والغربة،فالشيب كما أنه دليل على معاناته وآلامه، فإنه يجعله يشعر بالاختلاف عن أقرانه الذين لم يغزُهم الشيب بعد،وهذا الشعور يملي عليه الإحساس بالغربة.وذلك كقوله

([٥٤]) مقاطع من الوجدان:١٧٢.

في قصيدته "كهولة العشرين" [٥٥]وقد قدم لها بقوله "تكاثر الشيب في شعره وهو لايزال في الخامسة والعشرين" وهي مقدمة تتسم بالإنكار والتعجب معاً:

دبّ المشيب ووافى إثره الأجـــــلُ ماعاد في العيش لي قصدٌ ولا أملُ
ودّعتُ عهد الصبا توديع مرتـــــحلٍ وكل عهدٍ به حـــــــلٌ ومرتحلُ
وشمس عمري دنتْ نحو المغيب وقد أمستْ على عجلٍ للـــــغرب تنتقلُ
ومعول اليأس بالأيـــــام يحفر في قلبي فتنهشني من خـــــلفه العلل

وقوله في قصيدة أخرى:

وشبتُ ومازال الشباب ملازمي ولم ترتعش كفي ولم أنس مرتعي[٥٦]

وقوله:

وكيف وقد راح الشباب وزارني من الشيب ضيفٌ قد أطل بلاوعد[٥٧]
أطل مع العشرين حتـــى حسبته يعجل لي رغم الحـــــــداثة بالرشد
أقام ولكن طال وقـــــت مقامه فيالك من ضيف أقمتَ بـــــــلا رفد

وقوله-أيضا-:

وكيف والعمر بعد الشيب أنذرني بأنه بالردى يوماً سيطويني[٥٨]
وما أزال من العشرين أرفل في سن الزهور وأعمار الرياحين

([٥٥]) مقاطع من الوجدان:١٦٧.
([٥٦]) مقاطع:١٥٤.
([٥٧]) مقاطع:١٤٩.
([٥٨]) مقاطع:١٢٠.

فإن نُسبتُ إلى عمْر الشباب فلي عزم الشباب وقلبٌ في الثمانين

وقوله:

وقد قضى الله أن أقضي الشباب على نأي من الأهل والأحباب والدار[٥٩]
وأن يزور صباي الشيبُ في عجلٍ وما قضيتُ من الأيام أوطاري

وإحساس الشاعر بأنه لايلقى من تقدير المجتمع حوله مايستحق أمرٌ يدعوه للشعور بالغربة النفسية، لأنه يرى في نفسه من الاختلاف –بمعنى التميز–عن الآخرين مايجعله جديراً بالحفاوة والاحترام،وفي قصيدته "مرثاة لسان"[٦٠] تظهر معاناته واضحة حيث يشعر أن جرأته في الحق جعلته مُتجنباً من قبل الآخرين ،وذلك في مثل قوله:

الشاعر الصدّاح يحمل شعره وبه يطوف على ضفاف الأمنية
في هذه الدنيا يحلّق نـــاقصٌ والفضل خلــف كماله للتسوية
في هذه الدنيا يُخدَّر شـــاعرٌ بقصـــــيدةٍ منشورةٍ أو أمسية
في هذه الدنيا تموت قصـــائدٌ وينـــــال قائلها جوائز ترضية
و الأرجل العصماء شـــدوٌ حالمٌ أما القصائد فهي حمّى مـــعدية
في هذه الدنيا تعيش مـــــهازلٌ ولها تُغنى كـــــــل يوم أغنية
يسمو الوضيع بها ليبرق مجده ويعيش شاعرها ليمسح أحذية

---

(٥٩) مقاطع:١٠٣.

(٦٠) إليه:١٤.

وتتكـــرر المعانـــاة فـــي قصـــيدة أخـــرى أكثـــر صراحة[٦١]،وذلك في مثل قوله يصف نفسه ومنهجه في الشعر:

اسمعوني فإنني لســـتُ إلا شاعراً قد عرفتموه شـــــهورا
شاعراً قد عرفـــتموه يغنّي لجراحٍ بنتْ حواليه ســـــــورا
قلبه قد غدا قصيدة شـــعرٍ حين تُلقى تكون يومـــــاً مطيراً
حاربوه لأنه حين يشـــــدو يجعل الكون أحرفـــــاً وسطورا
حاربوه واستصغروه ولكن ما استطاعوا أن يجعلوه صغيرا
حاربوه لأنه قال شـــــعراً فيه يبني للبائسين قصـــــــورا
حاربوه لأنه يطأ الزيـــــــ ـــف ويصْلي وجه النفاق سعيرا

كما تظهر آلام الشاعر –أيضا–في قصيدته "وحدة"[٦٢]حيث يقول:

لاشيء حولي غير أو راقٍ بها شِعري الوليد
فيها الخـــــيالات التي أصبحتُ فيها كالشريد
فيها المعـــاني الظاهرا ت المشمخرات البنود
واريتُ منها مـــا أريد وقـــــد بدا ما لا أريد
وحدي أنا ياليلُ والســـ ـــكناتُ والصمت المبيد
وكأنني في عـــــــالمٍ أنا بين أهليه وحـــــيد

([٦١]) إليه:١٢٣.

([٦٢]) مقاطع من الوجدان:١٦٣.

ثم يقول:

من يا تُرى يحنو عليّ ويدفن الألم المـــديد
من ياتُرى يُصغي وقد جفّتْ لهاتي بالنشيد
أنا شاعرٌ غنّى علـــى أوتار قلبٍ للوجـــود
الشوك جرّحني ولكن فاز غيري بالورود
وحدي وما جرحٌ غفا إلا صحا جرحٌ جديد

ومن صور هذه المعاناة –أيضا– أن يشعر بحسد الآخرين له أو تكبرهم عليه:

ماذا ؟ أتحسدني وأنت تفوقني مجداً..وذكرك طائرٌ جوال(٦٣)
أعماك حقدك فانطلقتَ تذمني لتذمني مـــــــن بعدك الأذيال
وتحطّ من قدْري وقدْر قصائدي وتقولُ ذاك شويعر مخـــــــــتال

ويخاطب شخصاً متكبراً في قصيدة بعنوان "منصب وكبرياء"[٦٤] **وفيها تتتابع الاستفهامات الإنكارية من الشاعر حول هذا الكبر ودواعيه ،وهي استفهامات منطقية تنبع من مبدأ المساواة بين البشر وأن الإنسان ضعيف أمام خالقه فعلام الكبر والغطرسة؟وقد اختتمها بقوله:**

---

(٦٣) إليه: ٤١.

(٦٤) مقاطع من الوجدان: ١٣٥.

على أي شيءٍ تسحب الذيل تائهاً ... ومنك غدتْ كل الفضـــائل تُسحبُ

على ثروةٍ يومـــــاً تزول وتنتهي ... ولو كنتَ فوق التبر تغدو وتذهبُ

على منصبٍ يودي الزمانُ بقدره ... فيمسي سراباً والزمـــــان تقلّب

لعمرك إن التيهَ فـــــخٌ نصبتَه ... لنفسِك فانظر أين منـــه ستهرب

هذا، ومن صور رفض الشاعر لبعض سمات المجتمع الذي يعيش فيه، إنكاره لإزالة مزارع المدينة القديمة وبساتينها،يقول بعد أن وصف جمالها القديم الذي استحضره من الذاكرة:

ذاك البهاءُ الـــــذي غابت مفاتنه ... قد حرّك الوجد في قلبي فأشجاني

لم يبق منه على مرّ الزمان سوى ... أعجاز نخلٍ شكت مـــــن ظلم إنسان

غابت عن العين جناتٌ وقام على ... أطلالـــــــــها دور إسكانٍ وعمران

ولم تعد تصدح الأطيار من طـــرب ... فيها ولا من رؤى وجـــــدٍ وأحزان

مشاهدٌ تنفث الأحزان في كبـــــدي ... وتقذف الهم مـــــن أعماق وجداني

تغير الحـــــــال ياقلبي فها أنذا ... أرثي قباء وأبكي حـــــظ قربان(٦٥)

رابعاً:معاناته مع الحب المأمول.

حين يتعلق الإنسان بحب شخصٍ ما ثم يفقده لسببٍ من الأسباب فإنه يعيش أحد حالات الغربة النفسية،ذلك أن هذا المحبوب كان يمثل له الطرف الآخر الذي يتواصل معه،ويبوح له بمكنوناته ليخفف عنه ويشاركه همومه، ولذا قالت العرب في أمثالها-كما مر معنا- "فقد الأحبة غربة"،ولعل قصيدته التي بعنوان

([٦٥]) قباء وقربان موضعان مشهوران بالمزارع في المدينة.

"دلال"[٦٦]تصور مكانة المحبوبة لدى شاعرنا،وما يأمله منها،حيث يقول:

دلّليني فقد نسيتُ الـــــدلالا وامنحيني بعطفكِ الآمـــالا

دلليني لكي أعـــــود صغيراً كـــي تغني براءتي موّالا

إنني طفلك الصغير وجرحـــي نازفٌ لا يطيق عنكِ ارتحالا

وضعي كفك اليمين على خدي و مدي على جبيني الشِّمالا

وامسحي الدمع عن جفوني فإني مُجـــهَدٌ منهَكٌ أذوب انتقالا

دلليني بعض الرجـــال وإن كا نوا رجـــــالاً ترينهم أطفالا

إن هذه المقطوعة –على قصرها–تضمنت إشارات عديدة لهروب الشاعر من غربته إلى أحضان الحب،فالحب يجعله يعيش أيام الشباب الذي باعده الشيب عنه،كما أن الحب يمده بالحنان والعطف والرعاية مما يزيح عنه آلام الوحدة وهمومها،وهو يصرح في البيت الأخير أن ظاهره لايدل على حاجته للرعاية والدلال،لأنه رجل صلب،ولكن الغربة شعور نفسي عميق لايفرق بين الطفل الصغير والرجل الكبير.

وللشاعر بعض القصائد التي تدل على معاناته مع الحب أو المحبوبة، منها قصيدته "إلى خائنة"[٦٧] ولا يظهر فيها شيء كثير من الألم أو التحسر وهذا أمر متوقع من شاعرنا صاحب النفس الأبية والكبرياء ،يقول في مقدمة القصيدة:

---

(٦٦) إليه :١٢٩.

(٦٧) إليه:١١٧.

هيمي به وتشبثي بغرامـــــه وتلــوّني فــي حـــــبه
واحتالي
فلقد رثيت لحبه ولحـــــاله أضعاف مما قد رثيتُ لحالي
إني وأدتُ الحب في قلبي إلى أن صار مقبرةً لكل وصـــال

وله قصيدة تعبر عن غضبه الجم تجاه المحبوبة، وهذا الغضب يظهر على هيئة تشفٍ منها ،وهذه العاطفة –على أنها ليست سامية–تعبر عن الشعور المرير الذي عاناه الشاعر،ولنستمع إليه حين يقول[٦٨]:

فلتغضبي ما شئتِ إني هــازئٌ بكِ بالمشاعرِ بالهوى بالأدمع
تغلين كالبركان من غضبٍ ولا أصغي إليكِ ولا أعيركِ مسمعي
كلماتكِ الغضبى لهيبٌ محــرقٌ وأنا بقربكِ جامدٌ في موضعي
لا لن أحـــــرك ساكناً فتمزقي بل جربي نار الهوى وتقطّعي
تحريكُ قلبي صار أسهل في يدي من أن أحركَ خاتماً في أصبعي

إن الحب في كل ماسبق كان سبباً للغربة عند الشاعر من وجهين،أولهما:أنه دوماً ينتهي بفقد الحبيب وهذا فيه مافيه من العزلة وفقد الأمل ،وثانيهما:أن الشاعر يتجاوب في الغالب مع هذا الفقد بعاطفة عنيفة،ترغب في الثأر وتتمنى الألم والعناء لمن كان يحبه فغدر به،ومثل هذه المشاعر العنيفة –في رأيي– قد تزيد من شعور صاحبها بالعزلة والانطواء .

([٦٨]) مقاطع من الوجدان:٢٥٠، وانظر للاستزادة:٢٦٤ ، ٢٧٥.

خامساً: جرأته غير المعتادة في تناول بعض القضايا.

إن الجرأة في إبداء الرأي والحديث عن القضايا المختلفة، مظنة للشعور بالغربة من جهتين، الأولى:أن هذا السلوك غير معتاد عند الأغلب العام وبالتالي فهو دافع للشعور بالاختلاف وعدم التوافق، والثانية :أن صاحب هذا السلوك عادةً ما يكون مُتَجنَّباً من كثير من الناس لاعتبارات مختلفة إضافة إلى ما يُقابل به رأيه من عدم النشر في الصحف، وكلا الجهتين تعدان من أسباب الشعور بالغربة النفسية.

وقد أشار الأستاذ محمد شُرّاب –وهو من المشاركين في نشاطات أسرة الوادي المبارك الأدبية[٦٩]– إلى جرأة الشاعر قائلاً:"لم يتبع المثل القائل (ليس كل ما يُعلم يقال) وربما أدى أسلوبه الثوري إلى الحد من نشاطه الأدبي،ولو قُدر له الانصراف التام إلى الشعر،بزيادة ثروته اللغوية والفنية وهدّأ من ثورة الشباب الجامحة لكان من كبار الشعراء"[٧٠].

ولكن هذه الجرأة لم تكن آنيّة مدفوعة بثورة الشباب بقدر ماكانت سلوكاً في شخصية الشاعر، والدليل على ذلك قصيدته عن القضاة والتي قالها عام ١٤٢٢هـ ونشرها في جريدة المدينة و

([٦٩]) أسرة الوادي المبارك في الميزان:د.محمد الخطراوي،٢٥٨ ،مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ط١، ١٤٢٦هـ.

([٧٠]) شعراء من المملكة العربية السعودية:محمد شراب،٥٠١

مطلعها:

كلكم قاتلٌ ولا استثناء والقتيل القضاء والشرفاء [٧١]

فالحديث عن القضاة واتهامهم بالرشوة والجري وراء الدنيا الفانية يعد من الجرأة الواضحة، و في القصيدة إشارات عديدة للشعور بالغربة وذلك مثل قوله:

فكأنّا وحلٌ وأنتم زلالٌ وكأنّا أرضٌ وأنتم سماءُ

نحن أهل الضلال دوماً وأنتم عندنا المرسلون والأنبياء

وقوله:

فأبونا الحجّاج وابن سلولٍ وأبوكم علي والزهراء

وقوله:

أعذرونا فنحن نسل يزيدٍ أيها التابعون والخلفاء

ولايخفى أن المفارقات في الأبيات السابقة مبنية على السخرية.

([٧١]) جريدة المدينة، العدد الصادر بتاريخ ١٤٢٢/١٢/٢٦هـ الموافق ٢٠٠٢/٣/١١م.

المبحث الثاني:

الظواهر الفنية في شعر الغربة عند عبدالمحسن حليت

وُجدت بعض الظواهر الفنية البارزة في شعر الغربة عند شاعرنا،وهي ظواهر تتوزع على جوانب شتى من النص الشعري المغترب من معانٍ وأساليب وموسيقا.

أولاً:خطاب غير العاقل.

إن خطاب غير العاقل يعبر بشكل قوي عن تعلق الشاعر بغير البشر ، والمخاطب غير العاقل في شعر الحليت يكاد ينحصر في الليل أولاً ثم الفجر والبحر والعيد وجبل أحد، واختيار الشاعر لهؤلاء في خطابه لايخلو من بواعث شعورية معينة،تختلف باختلاف الجو الشعوري والفكري للقصيدة.

فاختياره الليل وإكثاره من خطابه يُعلل بأنه الوقت الذي يُفترض أن يأنس فيه الإنسان بصحبة المقربين والسمر معهم، وهو حينئذ الوقت الذي يشعر فيه الشاعر بوحدته وغربته ، ولذا نجده يفزع إليه-أعني إلى الليل- بذكر همومه وأحزانه،وكأنه اتخذه سميراً ورفيقاً يثق به ويبوح له بما في نفسه،يدل على هذا مثل قوله:

و دعْ صباي يناجي الليل علّ به نجماً يرافقني في غربة الدار[٧٢]

وقوله مخاطباً الليل:

أصغيتَ لي دهراً وكنـــ ـــت تبث في روحي المُنى[٧٣]

تحنو على قلبي الكسيـــ ـــر ولستَ تعرفُ من أنا

ويُلحظ أنه أسبغ على الليل صفة يفتقدها في البشر وهي بذل المعروف بغض النظر عن أي اعتبارات أخرى.

وكذلك مثل قوله:

فناديت قف ياليل أخبّرك الذي بنفسي من وجد يذل له الصخر[٧٤]

وقوله:

إيه ياليلُ مـــــــــا لديك تكلمْ فأنا في حديثك العذب مُغرم[٧٥]

أنت سلوى الحزين في كـــل خطبٍ أنت نبع العزاء في كـــل مأتم

تصحب الجرح حين يولد في القلـــ ـــب فإن شبّ كنتَ للجرح بلسم

وفي قصيدة "أنا والليل" يصرح الشاعر بسبب اصطفائه الليل وحبه له قائلاً:

([٧٢]) مقاطع:١٠٩.

([٧٣]) مقاطع:٢٠٨.

([٧٤]) مقاطع:٢٠.والبيت مكسور ،ويستقيم إذا عدّل إلى "أخبرْك ما الذي".

([٧٥]) مقاطع:١٨٤.

أنت الحبيب وأنت من رافقتني فـــي رحلـــة معهـــا الأســـى
مقرون(٧٦)

رافقتني، قاسمتني الوجد الذي مضت السنون عليه وهـــو دفين
وصحبتَني زمناً ولم تغدر ولي من غدر غيرك خافقٌ مطعـــــون
ووفيتَ لي دهراً وما فارقتني وأريتني كيف الوفاء يكـــــــون
وأبث أسراري إليكَ وأنت في كتمانهنّ وسرهنّ أميـــــــــــن
ما مرت الأرزاء بي ولمحتها إلا وكنتَ على المصـــاب تعين
ما شاب لونك يارفيق تغيرٌ وأرى زمـــــــاني شابه التلوين

وهذه السمات أيضا افتقدها الشاعر في الناس فخلعها على الليل وتغنى بها.

و أما الفجر فقد خصه الشاعر بالخطاب باعتباره بداية يوم جديد، يعاني فيه الشاعر من مظاهر عديدة تبعثه على الشعور بالغربة:

ما أقسى قلبك يافجري أكثرتَ الحسرة في صدري(٧٧)
وملأت نهاري آهاتٍ وسكبتَ الأدمع في شعري

ومن هذه المظاهر الرياء والجشع وحب المال على حساب الأخلاق.

وبالنسبة للبحر (٧٨) فخطابه إياه يأتي مدفوعاً بما يمثله

---

(٧٦) مقاطع:١٩٣.

(٧٧) مقاطع:٢٠٢.

البحر للشاعر من سميرٍ يملك أسباب الإمتاع والمؤانسة وإزالة الوحشة والاغتراب:

ونسيمك الزاكي يجمّد فـــــوق أجفاني الشــؤون
كم راح يطفئ ما تلهّــ ــب في الفؤاد من الشجون
كـــم داعب النفس التي شقيتْ على مـــــــر السنين
كم دغدغ الأصداغ حتى راح يحسدها الجبين

....

فيك الهدوء يميتُ في قلبي التلوّع والأنينْ
وأحب فيك الصمت حتى حين تقسو أو تلينْ

وهذه السمات كفيلة بجعل البحر مقرباً من الشاعر يخاطبه ويحاوره، لاسيما أنها سمات مفقودة في الناس من وجهة نظر الشاعر المغترب.

وإذا انتقلنا للحديث عن العيد، فإننا نجد الشاعر يخاطبه بوصفه حدثاً دالاً في العادة على السعادة والسرور، ولكنه يراه – نتيجة لشعوره بالغربة– أصبح أمراً مذكراً بالآلام والأحزان،ولذا فإنه يجسده شخصاً مهموماً:

ما بال طرفك يبكي أيها العــيد ومالوجهك تعلوه التجاعيد[٧٩]
ماذا أصابك أم من أي نازلــة على عيونك تبريـــح وتسهيد

([٧٨]) مقاطع:١٩٠.

([٧٩]) مقاطع:٨٣.

وما لصوتك يبدو خافتاً ولـكم أثارنا منـه إنشـــــاد
وتغريد

....

ما كل هذا الأسى إني عهدتك في مسارح الكون تهواك المواعيدُ
عهدتُ فيك سروراً كنتَ تحمله وتملأ الأرض من فيك الأنـاشيد
واليوم جئتَ وفي عينيك مسألةٌ وللمدامع في خديك أخـــدود

ويفصح الشاعر في أثناء القصيدة عن سبب تغير العيد عما كان عليه سابقاً،وهو تغير حال الأمة الإسلامية وما تعانيه بعض البلاد الإسلامية من تناحر واغتصاب لأراضيها.

أما جبل أحد، فقد خاطب فيه الشاعر رمزا تاريخياً عريقاً، يمثل ماضياً مجيداً،خبر الحياة وشهد العبر:

خبرت الزمان فهل من خبرْ يقصّر من ليلتي والسهرْ[٨٠]
وعشتَ الليالي وسامرتَها ولم تشكُ من طولها والقِصر

....

وجربتَ كل زمانٍ مضى وقد حزتَ من كل ماضٍ أثر
تمر القرون بأحداثها عليك وأنت تطيل النظر
وتلقى الليالي بأخبارها وصمتُك يستل منها العبر

كما يخاطب فيه شخصاً قريباً من النفس يخفف من شعوره بالإحباط

---

(٨٠) مقاطع:٣٨.

والانكسار جراء تأخر الأمة الإسلامية وضياع حقوقها:

نجيُّك ياعلم الشامخـــات جريـــــحٌ تجمّد فيه الضجرْ

وطرفي الذي امتد صوبك عاد كسيراً به دمعة تستعرْ

ولكن حديثك كان العزاء ولستُ أرى فيك صمت الحجرْ

إن خطاب غير العاقل في كل ماسبق يلحظ عليه ما يأتي:

- أنه مرتبط بشعور الشاعر بالغربة من جهة أو أخرى،فهو يخاطب الليل والبحر وجبل أحد لشعوره معهم بالأنس وزوال الغربة،كما يخاطب الفجر والعيد لاتصالهما بأحد مثيرات الغربة.
- أن مجرد تعلق الشاعر بخطاب غير البشر يدل على فتور في علاقته بالناس من حوله والمجتمع المحيط واغترابه عنه.

ثانياً:التَّكرار اللفظي.

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن السمة الثانية وهي التكرار اللفظي،فإننا نجد لها مجالاً فسيحا في شعر الحليت،وهو "من الوسائل اللغوية التي يمكن أن تؤدي في القصيدة دوراً تعبيرياً واضحاً ،فتكرار لفظة ما أو عبارة ما يوحي بشكل أولي بسيطرة هذا العنصر المكرر وإلحاحه على فكر الشاعر أو شعوره أو

لاشعوره"[٨١] ، وللتكرار بواعث نفسية تدفع الشاعر إليه ، فالشاعر يجد في التكرار خير معين في إيصال معاني الحسرة أو التحدي أو السخرية أو غير ذلك [٨٢]، وهو أيضاً "مثير للانتباه وداع للاهتمام بالشيء المكرر" [٨٣] مما يلفت انتباه السامع ويجذبه.

وقد ظهر التكرار اللفظي عند شاعرنا على عدة مستويات كتكرار الحرف والأداة ،وتكرار الكلمة، وتكرار التراكيب.ولكلٍ بواعث نفسية خاصة تُتلمّس من خلال النصوص المختلفة، ولايهمنا هنا استقصاء جميع هذه المستويات للتكرار وإنما يعنينا أن نتلمس البواعث النفسية للتكرار وبيان صلتها بالغربة عند الشاعر.

فمن تكرار الحروف والأدوات تكرار "لن" [٨٤] في قصيدته "نهاية حب" في معرض السخرية والتعنيف،وذلك في قوله:

لن تنعمي بالشعر بعد رحيله لن تظفري أبداً بمن يلقيه

([٨١]) عن بناء القصيدة العربية الحديثة:د/عشري زايد،٥٨،مكتبة ابن سينا-القاهرة، ط٤، ١٤٢٣هـ.

([٨٢]) انظر:التكرير بين المثير والتأثير:د/عزالدين علي السيد،١١٧-١٣٤، عالم الكتب-بيروت،ط٢، ١٤٠٧هـ.

([٨٣]) التكرار في شعر الخنساء:د/عبدالرحمن الهليل،٢٧، دار المؤيد-الرياض، ط١، ١٤١٩هـ.

([٨٤]) مقاطع:٢٦٤.

لن تلبسي أحلى الثياب ولن تري لجمالك الفتان من يطريه

.....

لن تلعبي بالعاشق الشادي ولن تبكيه ثم ببسمة تُرضيه

.....

لن تملكيني بالدلال فإن لي قلباً سينفي كل من ينفيه

والمتأمل في هذه الأبيات يتبين له أن النفي هنا مسلط على أمرين أولهما:مظاهر الدلال والحب التي كانت تنعم بها المحبوبة،وفي تكرار نفي ذلك في البيتين الأولين تعنيف لها وسخرية منها في آن واحد، وثانيهما:مظاهر انخداع الشاعر بهذه المحبوبة وسبلها في خداعه، وفي نفيه لها مكررا في البيتين الثالث والرابع بيان لمدى ألمه وإحساسه بالمرارة على مافات.

و كذلك تكرار أداة النفي "ليس" في خطابه مع المتكبر[٨٥]حين يقول:

رويداً فإن الطين أصلك والثرى ولستَ سنا بدرٍ ولا أنتَ كوكبُ

ولستَ تدير الكون بل لستَ خالقاً بإمرته للشمس شرقٌ ومغرب

ولستَ تصد الريحَ عن أي وجهةٍ ولا بيديك البحر يا صاح يعذبُ

وليس شقاء الناس شيئاً ملكتَه ولا سعدهم في العيش منك سيكتب

.....

وليس يصير النور إن نمتَ ظلمة ولا مجدبٌ من فضل رجليك يخصب

([٨٥]) مقاطع:١٣٦.

وتكرار النفي بـــ"ليس" في الأبيات السابقة مدفوع بعاطفة قوية حثيثة،هي عاطفة الغضب الرافض لهذا السلوك السيء المقيت "الكبر"،كما أن هذا التكرار تلوح فيه معانٍ للسخرية والتبكيت.

وكذلك تكراره "كم" الخبرية في قصيدة "على الشاطئ[٨٦] حيث يقول:

كم راح يطفئ ما تلهّـــ ـــب في الفؤاد من الشجون
كم داعـــــب النفس التي شقيت على مـــــــرّ السنين
كم دغدغ الأصداغ حتـــ ـــى راح يحسدهـــــا الجبين

وهو هنا في معرض وصف علاقته بهذا البحر الذي يهدئ من روعه وينفس عما في صدره، ولذا فإن تكرار كم الخبرية التي تفيد التكثير أصلاً يفيد قوة علاقته بالبحر وشدة ارتباطه به،وأن لهذا البحر من اللمسات الجميلة ماله الأثر العميق.

هذا ومن تكرار الكلمات تكراره للفعل "ودعتها" ثلاث مرات في مقدمة قصيدته التي بعنوان "كنت في بيروت" [٨٧]حيث يقول:

ودعتها و بكى الرحيل وتقطعت كبدُ العليلْ
ودعتها عند الغروبْ وما اشتفى مني غليلْ
ودعتها والكون مشـــ ـــدوه النواظر والعقولْ

---

(٨٦) مقاطع:١٩٠.

(٨٧) مقاطع:٥٨.

والتركيز هنا على الوداع لكون الشاعر يتألم لما أصاب مدينة بيروت جراء الحرب،والقصيدة كلها تحكي إحساس الشاعر بالتعجب والألم معاً لما حل فيها، وواضح أنه يتمنى لو كان يستطيع البقاء وتقديم مايمكن به دفع البلاء.إن التكرار هنا يحكي لنا تألم الشاعر المتكرر لفراقه ووداعه لبيروت دون تقديم مايعينها،ولذا نجد آخر بيت في القصيدة يقول:

وخرجت من بيروت وانـــ ـــتهت الحكاية بالوعودْ

وكان من الطبعي نتيجةً لهذا الحب والألم الذي يشعر بهما الشاعر تجاه بيروت أن يتكرر اسم" بيروت" تسع مرات في القصيدة في مثل قوله:

قد كنت في بيروت وانـــ ـــتهت الحكاية بالرحيل

وقوله:

ومشيتُ في بيروت ما بين الجماجم والدمـــــاء

وقوله:

ولمحتُ في بيروت عن كثبٍ قطيعاً مـــــن ذئاب

وقوله:

ومشيتُ في بيروت أصْـــ ـــرخ من هناك ولاجوابْ

وقوله:

و رأيتُ في بيروت مخـــ ـــتبر اليسار مع اليمين

وقوله:

ومشيتُ في بيروت أر ثي للـــــــوليد وللجنين

والمتأمل يلحظ أن تكرار اسم "بيروت" يرافقه إحساس بالتعجب والدهشة، وكأنه يقول للسامع :نعم هذا ماوجدته في بيروت!كما يلحظ أيضاً تكرار الفعل "مشيت" على سبيل الحكاية الفعلية لتكرار المشي في أحياء بيروت،ومشاهدة مآسيها.

و في قصيدة "مرثاة لسان "[٨٨] نجد تكراراً لضمير المتكلم "أنا" ٤ مرات حين يقول:

قولي فإني لست أعرف من أنا أنا تحت أنقاض السؤال دفينُ

أنا دمعة في عين كل قصيدةٍ أنا حرقةٌ في صدرها وشجون

أنا شاعرٌ قطع السكوتُ لسانه والبكم فيـــــــه طائرٌ ميمون

....

وأنا شراع صـــــامد لاينثني في صـــــدره يتكسّر الإعصار

وهذا التكرار تعبير صادق للذاتية في هذه القصيدة التي يتحدث فيها الشاعر عن معاناته مع المجتمع من حوله ،وقد استخدم ضمير المتكلم في معرض بيان الصفات التي يمتاز بها الشاعر عن غيره من المجتمع.

وفي القصيدة نفسها نجد الشاعر يخاطب أنثى مبتدءاً

([٨٨]) إليه: ١١.

خطابه بقوله "قولي" وذلك في اثنتي عشرة مرة مثل قوله:

قولي وقولي فالحديث شجون قولي لمثلي من تُراه يكون

وقوله:

قولي وقولي واملئيني نشوةً بيني وبين الناطقين بحارُ

قولي وقولي لاتكفي إنني حجرٌ لديه يلهث التيارُ

وقوله:

قولي وقولي أنقذيني إنني أصبحتُ فوق شفاه حظي سخرية

وقوله:

قولي وقولي قد وأدت قصائدي ومماتها قد كان أصدق تعزية

وأول مايُلحظ أن طلب وسيط للتعبير عن هذه الأمور وقولها للناس يدل على وجود فجوة بين الشاعر وبين مجتمعه ،وهذا هو لب الاغتراب النفسي، ثم إن تكرار الكلمة "قولي" مرتين متتاليتين في البيت الواحد يدل على رغبة ملحة من الشاعر للتعبير عن هذه المشاعر والأحاسيس،كما يُلمح من التكرار في جميع الأبيات أن الشاعر متشكك في فهم الناس لما يعانيه ويحس به،ويريد أن يوصل لهم هذا الإحساس بالتكرار في بداية كل مقطع من قصيدته،دفعاً لغفلتهم أو نسيانهم .

وهذا الباعث النفسي نفسه يتكرر أيضا في قصيدة

أخرى[٨٩] يبتدؤها بقوله:

اسمعوني فلن أطيل كثيرا روعة القول أن يكون قصيرا
اسمعوني فإنني لستُ إلا شاعراً قد عرفتموه شهورا

....

اسمعوني فلستُ غير هديلٍ هل يسمى الهديل يوماً غرورا

فالتركيز على طلب الاستماع لما يقول يدل على اقتناعه بوجود علة في علاقته بمجتمعه أو جمهوره الذي لايهتم كما يجب –في نظر الشاعر– بما يقوله ويشعر به.

ويتكرر الفعل "حاربوه" أربع مرات في القصيدة نفسها حين يقول:

حاربوه لأنه حين يشـــدو يجعل الكون أحرفاً وسطـــورا
حاربوه واستصغروه ولكن ما استطاعوا أن يجعلوه صغيرا
حاربوه لأنه قال شـــعراً فيه يبني للبائسين قصـــــورا
حاربوه لأنه يطأ الزيـــــ ـف ويُصلي وجه النفاق سعيرا

إن الفعل "حاربوه" ينطوي على أمرٍ غير مقبول عند السامع بداهة ،وفي تكراره لفتٌ لانتباه السامع ،كما يُلمح فيه أيضاً ميل الشاعر إلى الشكوى والتظلم من هذا الأمر المقيت.

ومن التكرار الذي يفيد التوكيد عند الشاعر تكراره "لاتعودي" أربع مرات[٩٠] حين يخاطب فتاة آلمته:

---

(٨٩) إليه:١٢٣.

(٩٠) مقاطع:١٧١.

لاتعودي فقد نحرتُ ســـروري وتواريـــتُ خلفـــه عـــن شعوري

لاتعودي فما لقاؤكِ يـــــطوي من معاناة شاعرٍ مـــــأسور

لاتعودي فليس طيب التـــلاقي يبعث الحب في فؤادي الكسير

لاتعودي فلستُ بالعيش أرضى نوم ذلٍ على صنوف الحـــرير

إن التكرار هنا يعبر عن موقف صارم وثابت من الشاعر تجاه علاقته مع المخاطبة،ولاشك أن هذه الصرامة نتيجة لمعاناة نفسية مر بها.

هذا وقد استعرض الشاعر [٩١]علل المجتمع التي صرفته عن مكارم الأخلاق والاهتمام بالشعر الذي يرقى بالنفوس،فتحدث عن جيل الشباب الذي ينتمي إليه في أربعة أبيات مكررا كلمة"جيل "في بداية كل بيت قائلاً:

جيلٌ يلذّ الترّهات وعنده للمكرمات وقدرها أصنام

جيلٌ يقاس به الفتى بثرائه فتجفّ في تعظيمه الأقلام

جيلٌ يصرّفه النفاق وليس مثـــ ـــل زمامه في النائبات زمام

جيلٌ له من كل خزيٍ وصمةٌ وعليه أركان الهوان تُقامُ

والتكرار هنا أضفى ترابطاً بين الأبيات من حيث أنها تتحدث عن هذا الجيل الجديد، ثم إن التكرار في بداية كل بيت ناسب التفصيل

([٩١]) مقاطع:٢٢٣.

والبيان لبعض صفات هذا الجيل.

ومن جهة أخرى فإن تكرار التراكيب وُجد بدرجة أقل عند الشاعر ، ومن أمثلته تكرار "لهفي عليك" ثلاث مرات[٩٢] في قصيدته "البركان" وذلك حين رأى قصيدة منشورة له في إحدى الصحف قد قد رُميت و غدت قطعاً يطوحها الهواء في كل مكان، يقول مخاطباً شعره:

لهفي عليكَ إلام أنتَ تُضامُ ومتى ستعرف قدركَ الأيام

لهفي عليك وأنت مني قطعةٌ أبواك فيها الفكر والإلهامُ

...

لهفي عليك وأنت تنزل منزلاً فوق التراب تدوسك الأقدام

فالتكرار هنا ينم عن حزن عميق ،وألم نفسي مرير، جراء شعور الشاعر بعدم تقدير المجتمع له ولشعره.

و منه أيضاً تكرار "وحدي" ثماني مرات في قصيدته "وحدة"[٩٣] في قوله:

وحدي ولا أحد معي غير الجراح وأدمعي

وحدي وأشجاني الحرا ر عن الأسى لم تقلع

وقوله:

وحدي أذوب وأحتسي كأس الرحيل المُترع

---

(٩٢) مقاطع:٢٢٣.

(٩٣) مقاطع:١٦٠.

وقوله:

وحدي أنا في حجرةٍ شاب السكوت بها معي

وحدي وأحلام الصبا ولّت إلى الأفق البعيد

وحدي وأطياف الكهو لة مؤذنات بالقعود

وقوله:

وحدي أنا ياليل والســـ ـــكنات والصمت المبيدْ

وقوله:

وحدي وماجرح غفا إلا صحا جرحٌ جديدْ

و هذا التكرار الممزوج بالشكوى والألم يبين لنا مدى شعور الشاعر بالوحدة ،وهي نتيجة من نتائج الغربة الفكرية والنفسية.

و من تكرار التراكيب أيضا تكرار التحية الجاهلية "أبيت اللعن" ثماني مرات[٩٤] في قصيدته التي يعارض فيها معلقة عمرو بن كلثوم ،وذلك في مثل قوله:

أبيت اللعن عذراً إن هذي قصيدتي التي كانت جنينا

وقوله:

أبيت اللعن كل خطوط عاري على وجهي غدت وشماً حزينا

وقوله:

أبيت اللعن ما أدركتَ ديني ولو أدركتَه لرأيتَ دينا

([٩٤]) إليه:٥٧.

والتكرار في القصيدة جاء متفرقاً في أبيات عديدة، استشعاراً من الشاعر أنه يخاطب رمزاً من رموز الفخر في الشعر العربي ، وجذباً لانتباه السامع أن المخاطب هنا ليس شخصاً عادياً ينتمي إلى هذا الزمان.

ثالثاً:معارضة قصائد تتصل بشعوره بالغربة.

يراد بالمعارضة اتفاق نصين شعريين في الوزن والقافية وحركتها مع وجود أثر للنص السابق في النص اللاحق،سواء في الفكرة أم الأسلوب أم المناسبة أم غير ذلك[٩٥].

ومعارضات عبدالمحسن حليت التي تحمل في طياتها أثراً للغربة ترتبط بشكلٍ من الأشكال مع نماذجها كما سأبين بعد قليل.

وبداية أود الإشارة إلى النماذج التي عارضها وهي كالتالي:

١. نونية عمرو بن كلثوم في الفخر[٩٦]التي مطلعها:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولاتبقي خمور الأندرينا

٢. دالية المتنبي في العيد[٩٧]التي مطلعها:

([٩٥]) المعارضات في الشعر السعودي:د/ماهر مهل الرحيلي،١٥.

([٩٦])ديوان عمرو بن كلثوم:ت. د/علي أبوزيد،٧٥، دار سعدالدين-دمشق، ط١، ١٤١٢هـ ،وانظر المعارضة: إليه:٥٧.

([٩٧]) شرح ديوان المتنبي:البرقوقي، ١٣٩/٢، وانظر

عيدٌ بأية حالٍ عدتَ ياعيد بما مضى أم بأمرٍ فيك تجديد

٣. رائية أبي فراس في الأسر[٩٨]التي مطلعها:

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهيٌ عليكَ ولا أمر

٤. رائية شوقي[٩٩] في أبي الهول[١٠٠]التي مطلعها:

أبا الهول طال عليك العُصُرْ وبُلِّغتَ في الأرض أقصى العمر[١٠١]

و وجود أربعة معارضات في شعر الغربة عند الشاعر أمر يلفت النظر،ولهذه المعارضات بواعث تختلف من واحدة لأخرى، فعمرو بن كلثوم يفخر بقومه ،وقد كان لهذا الفخر دواعيه ومسبباته ،ذلك أنه قال القصيدة بعد أن تعرّض للحادثة الشهيرة مع

المعارضة:مقاطع:٢٥.

([٩٨]) ديوان أبي فراس:١٥٧، وانظر المعارضة: مقاطع:٨٠.

([٩٩]) هو أحمد شوقي بن علي أحمد شوقي(١٢٨٥-١٣٥١) ،من كبار الشعراء،نشأ في البيت المالك بمصر ولُقب بشاعر العزيز،بويع بإمارة الشعر من شعراء عصره، يمتاز شعره بموسيقاه البديعة،ابتكر القصص على لسان الحيوان والمسرحية الشعرية ،متأثراً بالأدب الفرنسي."الأعلام:ا/١٣٦".

([١٠٠]) مقاطع:٣٨.

([١٠١]) الموسوعة الشوقية:جمع وترتيب وشرح إبراهيم الابياري،٣/٢٦٤،دار الكتاب العربي-بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

ملك الحيرة عمرو بن هند حين أرادت أم الملك أن تغض من شأن أم عمرو بن كلثوم وحاولت أن تستخدمها في بعض حاجاتها فصاحت أم عمرو بن كلثوم :يالتغلب ،مما أدى إلى قتل عمرو بن كلثوم للملك عمرو بن هند، وبغض النظر عن صحة هذه الواقعة أو عدمها[١٠٢]،فإن القصيدة تحمل شحنات قوية جدا من الاعتزاز والفخر إلى درجة تصل أحياناً حد المبالغة،وقد عارض عبدالمحسن هذه المعلقة بالذات، إرادةً منه في بيان الفارق بين شعوره هو تجاه قومه وأمته وشعور عمرو بن كلثوم تجاه بني تغلب، وبيان الفارق أيضاً بين حال بني تغلب "قوم عمرو بن كلثوم" وبين حال الأمة الإسلامية كما يراه شاعرنا ،وهو بذلك قد وظّف المعارضة توظيفاً فنياً،ولذلك فقد عنون معارضته بـــ"تصحيح في معلقة عمرو بن كلثوم".

فمن أبيات المعلقة:

وقد علم القبائل من مـــــعدٍ إذا قُببٌ بأبطحـــــــها بُنينا
بأنا العاصمون إذا أطـــــعنا وأنا العارمون إذا عُصـــينا
وأنا المانعون لما يلـــــــينا إذا ما البيض فارقت الجفونا
وأنا المنعمون إذا قـــــدرنا وأنا المهلِكون إذا أتـــــينا
وأنا الحاكمون بما أردنـــــا وأنـــا النازلون بحيث شـــينا
وأنا الطالبون إذا انتقمـــــنا وأنا الضاربـــون إذا ابتُلينا
وأنا التاركون لما سخطـــنا وأنا الآخذون لما رضـــينا

([١٠٢]) انظر ديوان عمرو بن كلثوم:ت. د/علي أبوزيد،٢٦-٣٤.

وأنا النازلون بكل ثـــــــغرٍ يخاف النازلون بها المـــنونا

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كـــــدراً وطينا

أما عبدالمحسن فتتجسد معاناته في معارضته من خلال قوله –مثلا–:

غُثاء السيل نحن وكم خَلقنا لكل هزيمة سبباً متينا

مللنا من مآسينا وصـــــرنا نعيب زماننا والعيب فينا

فكل هزائم الدنيا لـــــــدينا تسمى نكسةً ستُرد حـــينا

وكل كتيبةٍ نقضي عليـــــها تُسمى عندنا فتـــحاً مبينا

ونجبن إن دعانا الثأر يـــوماً ونركض للسلام إذا دُعينا

ولانبكي لأعراض الصـــبايا وتبكينا دموع العـــاشقينا

فإنا الطائعون إذا أمـــــرنا وإنا الصـــابرون إذا ابتُلينا

وإنا الخاسرون إذا ربحـــنا وإنا الرابحـــون إذا نَسينا

ونسقي بعضَنا كدراً وطينا لنسقي غيرنا مـــاءً معينا

والملاحظ أن عبدالمحسن يعمد إلى كثير من معاني المعلقة فيغيرها بما يناسب عاطفته وشعوره وقد صرح بذلك في بداية قصيدته حين قال مخاطباً عمرو بن كلثوم في معرض وصفه لمعارضته:

تضيف إليك شيئاً لـــــم تقله وتمحو كل ما قـــــد قلتَ فينا

وتبدل كل بيت قيل فـــــــخراً ببيت يلعق الـــــــذل المبينا

وإذا انتقلنا إلى دالية المتنبي فإننا نجده فيها حزيناً مُحبطاً

بعد فراق سيف الدولة وعدم تحقيق آماله في صحبة كافور ،ولاشك أن مقامه بين أناس لايحبهم وبعده عمن يكن لهم المودة فيه من المعاناة الشيء الكثير،لذا نجد للغربة النفسية أثراً واضحاً في بداية القصيدة:

عيدٌ بأية حال عدتَ ياعيدُ بما مضى أم بأمرٍ فيك تجديدُ
أما الأحبة فالبيداء دونهمُ فليتَ دونكَ بيداً دونها بيدُ

إن العيد عند المتنبي ليس له أثرٌ من السرور والأحبة بعيدون عنه،بل إنه يتمنى لو كان مابينه وبين العيد ضِعف ما بينه وبين الأحبة من البعد.

وتلوح المعاناة في أبيات عديدة من القصيدة أيضا، كقوله:

إذا أردتُ كميتَ اللون صافيةً وجدتُها وحبيبُ النفسِ مفقود
ماذا لقيتُ من الدنيا وأعجبُه أني بما أنا باكٍ منه محسودُ

إن المتعة الفانية "الخمر" ليس لها قيمة وحبيب النفس بعيد عنه، كما أن إحساس الشاعر بحسد الناس له على مايسبب له الآلام مما زاده ألماً وحسرة،فقد كانوا يحسدونه على مقامه عند كافور ،ولم يعلموا أن كافوراً سببُ ألمه.

وأبيات الهجاء في القصيدة وإن كانت ذات عاطفة غير سامية، إلا أنها مؤشرٌ واضح لإحساسه بالألم والغربة، خاصة حينما تتطرق معاني الهجاء إلى ذكر اللون والعرق.

وهذا الشعور بالغربة عند المتنبي نجده ماثلاً في معارضة عبدالمحسن أيضاً،على اختلاف في الباعث على الغربة بين

الشاعرين،فالمتنبي مغترب نفسياً لأنه لم ينل ما كان يطمح إليه من منصب أو رئاسة،أما عبدالمحسن فهو مغترب لأن أمته انقطعت عن أمجادها وماضيها البطولي،مما حدا به إلى الشعور بالذل :

حسبي هواناً إذا أخبرتُ عن نسبي كأنني في ثياب العار مولودُ

وفي القصيدة تفصيل لبعض مآسي الأمة الإسلامية كقضية فلسطين حين يقول مخاطباً العيد:

أتلمم المسجد الأقصى وقبتَه أم عنه يا عيدُ أعمتك الأماليدُ

أتلمم العارَ يخطو فوق أرؤسنا أم أنت يا عيد في اللذات عربيدُ

أتسمع الطفل يبكي فقد مرضعةٍ أم أن سمعك عنه اليوم مسدود

ألستَ تخجل من هذا ألستَ ترى مهازلاً في مداها الجد موؤودُ

والمتأمل يلاحظ تكرار ذكر العار، والاستفهام التقريري عن الشعور بالخجل،وهما-أي الشعور بالعار ومن ثم الخجل-مما يدعو الإنسان إلى الاغتراب بلاشك.

و إذا انتقلنا إلى أبي فراس نجد قصيدته تعبيراً صادقاً عن شعوره بالغربة والألم ،ذلك أنه قالها وهو في أسر الروم وكان مُحبطاً لعدم استعجال سيف الدولة بافتدائه[١٠٣].ومطلع القصيدة

([١٠٣]) انظر:الأسر والسجن في شعر العرب:د/أحمد البزرة،٤٦١

صريح في دلالته على معاناة الشاعر حيث يقول:

أراكَ عصي الدمع شيمتك الصبرُ أما للهوى نهي عليكَ ولا أمرُ

بلى أنا مشتاقٌ وعندي لوعةٌ ولكن مثلي لايذاع له سرُ

إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى وأذللتُ دمعاً من خلائقه الكِبرُ

تكاد تضيء النار بين جوانحي إذا هي أذكتها الصبابة والفِكر

فقد ذكر الشوق واللوعة وذرف الدموع ودوام التفكر في الأحبة ،وأبو فراس يرمز بالهوى –في رأيي– لما يكنه من مشاعر تجاه أحبته و وطنه،فهو أبعد ما يكون عن حال الصبابة وأمور الهيام، وفي القصيدة أبيات عديدة في الفخر أيضاً، وهو رد فعلٍ متوقع من أميرٍ تعرض للإذلال والأسر مغترباً عن وطنه.

واجتماع الغربة المكانية والشعورية في هذه القصيدة يتحقق في معارضة عبدالمحسن أيضا،فقد قالها وهو مغترب عن وطنه للدراسة ،مستشعراً هموم أمته ودينه:

وكيف تراني فيك يالليلُ والجوى أناخ بقلبٍ ملّ جيرتَه الصدرُ

وكيف تراني أحمد العيش ساعةً وديني َ في الأصقاع ليس له ذكر

كأنْ لم يغطِّ الكون والأرض ظلُّه ولم يزن الأيام من فخره كبرُ

و أما رائية شوقي في أبي الهول ،فإن القارئ لايجد في

،٤٧٧،مؤسسة علوم القرآن–دمشق، ط١، ١٤٠٥هـ.

هذه القصيدة أي دلالة للغربة أو الألم ،ولكنه يجد روحاً شغوفاً بالتاريخ ،ومستشعرة لحب الوطن،في إطار من الفخر الوطني وذلك في مثل قوله:

فهل من يبلّغ عنا الأصـــــو لَ بأن الفروع اقتدتْ بالسيرْ
وأنا خطبنا حسان العـــــلا وسُقنا لها الغالي المُـــــدّخرْ
وأنا ركبنا غمار الأمـــــو رِ وأنا نزلنا إلى المؤتـــــمر
بكل مبينٍ شديدِ اللـــــدا دِ وكـــــل أريبٍ بعيدِ النظر
تطالب بالحق في أمـــــــةٍ جرى دمـــــــه دونها وانتشرْ
ولم تفتخر بأســـــاطيلها ولكن بدستورهـــــا تفتخر
فلم يبق غيرك من لم يحف ولم يبق غيرك من لم يـــــطرْ
تحركْ أبا الهول هذا الزمـــا نُ تحرّك ما فيه حتى الحـــجر

وقد قدم عبدالمحسن لمعارضته بمقدمة نثرية تشير بوضوح إلى إعجابه برائية شوقي، وهو سبب كاف يوجهه لمعارضتها،كما أن ثمة ملمحاً آخر جذب الشاعر لمعارضة رائية شوقي وهو أن شوقي بنى قصيدته على خطاب غير العاقل –أبو الهول–وهذا الملمح الفني من أهم ظواهر شعر الغربة الفنية عند عبدالمحسن حليت–كما أسلفت–.

وتتضح مشاعر الغربة في معارضة عبدالمحسن حين يشعر بالحنين إلى السلف الذين قاموا بحقوق دينهم وصانوه وقد افتخر بهم إلى درجة الملل، أما الأمة الآن فهو غريب عنها:

مللتُ الفخار بماضي الجدود كأنه به عن غدي أستترْ

وقومي الذين هم المرتجَى أراهم كغرسٍ وما من ثمر

وختاماً فإن المعارضات في كل ماسبق يلحظ عليها أنها تعارض شعراء سابقين ،لم يعاصرهم الشاعر ولم يرهم، ولعل في هذا دليلاً آخر على انقطاع الشاعر إلى الماضي عن الحاضر والمحيط من حوله.

الخاتمة

خرجت هذه الدراسة بنتائج عديدة أذكر أهمها إجمالاً فيمايلي:

١. أن ما ورد من استعمالات لمادة "غ ر ب" في الحديث النبوي الشريف وتراث العرب شعراً ونثراً استعمله الشاعر للدلالة على الغربة المكانية والنفسية عنده.

٢. تعدُد دواعي الغربة عند عبدالمحسن حليت مابين سفره للدراسة، وإحساسه بضعف الأمة الإسلامية، وإحساسه بالاختلاف عمن حوله من المجتمع، ومعاناته مع الحب المأمول، وجرأته غير المعتادة في تناول بعض القضايا ، وكل هذه الدواعي جعلته يشعر بغربة نفسية ومكانية ظهر صداها في شعره.

٣. كانت أهم السمات الفنية في شعر الغربة عند عبدالمحسن حليت هي:خطاب غير العاقل، التكرار اللفظي، المعارضة الشعرية، وكانت كلها مرتبطة بشعور الشاعر ونفسيته ومعبرة تعبيراً واضحاً عنها.

وختاما أسأل الله عزوجل أن يجعل هذا العمل مفيداً في بابه ،وفاتحاً لآفاق جديدة لدى الباحثين .

هذا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس المصادر والمراجع

أولاً:الكتب المطبوعة:

١. إتمام الأعلام:د/نزار أباظة و محمد رياض المالح،دار صادر – بيروت،ط٢، ١٤٢٤هـ.

٢. أساس البلاغة: جار الله الزمخشري،تحقيق د/مزيد نعيم و د/شوقي المعري، ٥٨٢، مكتبة لبنان،ط١، ١٩٩٨.

٣. أسرة الوادي المبارك في الميزان:د/محمد العيد الخطراوي، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض، ١٤٢٦هـ.

٤. الأسر والسجن في شعر العرب:د/أحمد البزرة،مؤسسة علوم القرآن–دمشق، ط١، ١٤٠٥هـ.

٥. الأعلام:خير الدين الزركلي،دار العلم للملايين–بيروت،ط١٢، ١٩٩٧م.

٦. إليه:عبدالمحسن حليت، راسم للدعاية والإعلان–جدة،ط١، ١٤٠٥هـ.

٧. التكرار في شعر الخنساء: د/عبدالرحمن الهليل، دار المؤيد–الرياض، ط١، ١٤١٩هـ.

٨. التكرير بين المثير والتأثير:د/عزالدين علي السيد، عالم الكتب–بيروت،ط٢، ١٤٠٧هـ.

٩. التمرد والغربة في الشعر الجاهلي:د.عبدالقادر زيدان، دار الوفاء–الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٣م.

١٠. جمهرة أشعار العرب:أبوزيد القرشي،تحقيق د/محمد الهاشمي ، دار القلم–دمشق،ط٣، ١٤١٩هـ

١١. ديوان أبي فراس: دار صادر– بيروت،ط٢، ١٤١٢هـ.

١٢. ديوان الشريف الرضي:تصحيح وتقديم د/إحسان عباس، دار صادر بيروت،١٩٩٤م.

١٣. ديوان العباس بن الأحنف:دار صادر–بيروت، ١٣٩٨هـ.

١٤. شرح ديوان جرير:ضبط وشرح إيليا الحاوي، الشركة العالمية للكتاب، ط٢، ١٩٩٥م.

١٥. شرح ديوان المتنبي: عبدالرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ.

١٦. ديوان جميل بثينة: دار صادر–بيروت، ط٢، ٢٠٠٢م.

١٧. ديوان عمرو بن كلثوم: صنعة د/علي أبوزيد، دار سعد الدين–دمشق، ط١، ١٤١٢هـ

١٨. الذات في مواجهة العالم–تجليات الاغتراب في القصة القصيرة في الجزيرة العربية:د.أميرة الزهراني،المركز الثقافي العربي–الدار البيضاء،ط١، ٢٠٠٧م.

١٩. شعر الأحوص الأنصاري: ت. عادل سليمان جمال،٢١٢، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر–القاهرة، ١٣٩٠ه.

٢٠. شعراء من المملكة العربية السعودية:محمد محمد شراب، دار المأمون للتراث – دمشق،ط١، ١٤٢٦هـ

٢١. شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم:نشوان

الحميري، تحقيق د/حسين العمري وآخرين، دار الفكر- دمشق، ط١، ١٤٢٠هـ.

٢٢. صحيح مسلم بشرح النووي: دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط٤.

٢٣. صورة الرجل في القصة القصيرة في المملكة العربية السعودية:منال العيسى، نادي الرياض الأدبي، ط١، ١٤٢٣هـ.

٢٤. عن بناء القصيدة العربية الحديثة:د.علي عشري زايد ،مكتبة ابن سينا-القاهرة،ط٤، ١٤٢٣هـ.

٢٥. الغربة في شعر محمود درويش: أحمد جواد مغنية،١٨،دار الفارابي-بيروت،ط١، ٢٠٠٤م.

٢٦. فتح الباري يشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني، تحقيق محب الدين الخطيب،دار الريان-القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ.

٢٧. القاموس المحيط:الفيروزبادي، دار إحياء التراث العربي،بيروت،ط ا، ١٤١٢هـ

٢٨. لسان العرب:ابن منظور،نسقه وعلق عليه ووضع فهارسه علي شيري، دار إحياء التراث العربي،بيروت،ط٢، ١٤١٢هـ.

٢٩. مجمع الأمثال:الميداني،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل-بيروت، ١٤١٦هـ.

٣٠. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين:ابن قيم الجوزية،ت. محمد حامد الفقي،دار الكتاب العربي-بيروت، د.ت.

٣١. المستقصى في أمثال العرب: الزمخشري، دار الكتب

العلمية-بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

٣٢. المعارضات في الشعر السعودي:د/ماهر مهل الرحيلي، كنوز المعرفة-جدة، ط١، ١٤٣١هـ.

٣٣. معجم الشعراء السعوديين:عبدالكريم حمد الحقيل،ط١، ١٤٢٤هـ.

٣٤. مقاطع من الوجدان:عبدالمحسن حليت، دار العلم-جدة،ط١، ١٤٠٣هـ

٣٥. منتهى الطلب من أشعار العرب: محمد بن المبارك بن ميمون،ت. د/محمد طريفي، دار صادر -بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

٣٦. المنهج النفسي في النقد الحديث-النقاد المصريون نموذجاً:د/بسام قطوس، إصدارات مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، ط١، ٢٠٠٤م.

٣٧. الموسوعة الشوقية:جمع وترتيب وشرح إبراهيم الابياري،دار الكتاب العربي، بيروت، ط١ ،١٤١٥هـ.

ثانياً:الصحف والدوريات:

١- جريدة المدينة المنورة ، العدد الصادر بتاريخ ١٤٢٢/١٢/٢٦هـ الموافق ٢٠٠٢/٣/١١م.